نهج الإبداع ونهج الاتباع بين الدين والمعرفة والإيديولوجيا

محمد الشتيوي ■

يحظى موضوع الإبداع بأهمية قصوى في العصر الحديث؛ لأنّه هو الذي تأسس عليه التقدّم العلمي والحضاري بمعناه الشامل، والإبداع هو جوهر الحداثة، وهو النهج الذي تعولمت به العولمة.

وإذا كانت الدول المتقدّمة تعيش إشكالية الإبداع وهي تمارس فعل الإبداع ـ الذي يزيدها قوة وتقدّماً ـ فإنّ العالم الإسلامي ما زال يعيشها وهو يتطلّع إلى رسوخ القدم في نهج الإبداع، والتحرّر من نهج الاتباع الذي يثقل خطواته.

وهذا يعني أنّه يوجد فرق جوهري بين مجتمع سؤاله: كيف نبدع؟ ومجتمع سؤاله: نبدع أم نتبع؟

ويمكن تلطيف هذا السؤال الثنائي بأن نضع

■ أستاذ بالمعهد العالي لأصول الدين، جامعة الزيتونة، تونس.

الإشكالية على أرضية إبداعية تحسيناً للظنّ بطموحاتنا، فتصير الصياغة كالتالي:

إننـا أمّـة تريد تجديـد حيويتها المفقـودة، وتريد أن تبـدع لتحقيق ذاتيتها، وللارتقاء بوضعها في عالم الحداثة المتسارع؛ لكنّ نهج الإبداع الـذي تريده وسـارت فيه خطوات ـ وإن كانت غيـر كافية ـ يثقل ممشاه نهـج اتباعيّ ينكر الإبداع أصـلاً ويراه من محدثات البدع، أو على الأقل يتوجـس منه خيفة كأنه ينتظر من يقول لـه كما قال ربّ العزّة لموسى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: 21].

وتخـوّفُ بعض الخائفيـن من الإبداع له جملة مـن المنطلقات المتعلّقة بالديـن والمحافظـة على هويـة الأمـة وثوابتهـا؛ لأنّهـم ـ أي: الخائفين أو المبدّعيـن للإبداع ـ يلاحظون أنّ أرفـع الأصوات المنادية باقتحام مجالات الإبـداع هـي أصـوات إيديولوجيـة معادية للديـن أو تريد تحييـده على أقل تقديـر؛ لأنّه في نظرها نهـج وثوقيّ يرفض التطوّر بسبب بعده الميتافيزيقي الذي لا علاقة له بالمعرفة العلمية الموضوعية ولا بالإبداع.

إنّ هـذا الطرح يضـع الدين في خطّ اتباعي ثابـت يقابله خطّ إبداعي متطوّر هو خطّ الإيديولوجيا.

غير أنّه يوجد طرح آخر يضع الدين والإيديولوجيا في نهج اتباعيّ واحد مناقض للمعرفة والإبداع.

ونحـن لا نسلّم بالطـرح الأوّل ولا بالذي يليه، وإنّما نـرى أنّ الإشكالية مركّبـة وشديدة التعقيد، وحسبنـا أن نلامس بعض عناصرها المتداخلة في ضوء جملة من الأسئلة مثل: هل الإيديولوجيا معرفة نهجها الإبداع؟ أم هي نهج اتباعي؟ بل هل الدين إيديولوجيا؟

والـذي يعنينـا أكثـر هـو الديـن الإسلامي الـذي أدخلـه كثير من العلمانييـن والمستشرقين فـي قفص الاتهام، ووضعوه فـي خانة الاتباع والجمود، ورشقوه بألسنة حداد سهل عليها الاستناد إلى أوضاع تاريخية متخلّفـة، وإلـى أفـواج من المتديّنيـن الذيـن يعيشون في هـذا العصر بعقليـات ماضويـة أو إسمنتيـة ـ كما يقولون ـ تقـدّس التراث بغير نقد، وتحرّم الإضافة والتفكير المبدع.

ولكن قبل مناقشة ذلك، ما المقصود بنهجي الإبداع والاتباع؟

نهج الإبداع ونهج الاتباع:

عرّف المسلمون الإبداع بأنّه «إحداث شيء على غير مثال سابق»[1] فهو بهذا المعنى إنتاج لا يتقيّد بسابق متقدّم ولا بمثال متبّع، إنّه ابتكار جديد ليـس فيه مطابقة لنموذج قبلي يحتذى. ومعلوم أنّ المسلمين إنّما وضعوا هـذا التعريـف انطلاقاً من إيمانهـم بأنّ اللّه تعالى هـو الخالق و﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [البقـرة: 117] فهـو مطلق القدرة ليـس قبله شيء، وهو الأوّل والآخر، وبناء على ذلك فليس قبله أمثلة ولا أشياء ولا نماذج سابقة يتبعهـا؛ بل هو الـذي يبدع الأوائل على غير سوابـق، ويحدث الأشياء من العـدم؛ أي: مـن غير أشياء لذلك عـرّف الجرجاني الإبـداع بأنّه «إيجاد الشيء من لا شيء»[2].

لكنّ موضوع بحثنا هو الإبداع البشري الذي لا علاقة له بإيجاد الشيء مـن اللاشيء، بل هـو بالمعنى الإسلامي الـذي أفهمه إبداع علـى الإبداع. فـاللّه تعالـى لمّا أبدع الكون والحياة التي فيه سوّاه على سنن وقوانين قابلة

1 ـ التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، دار قهرمان، إستانبول، 1984، 1/134.

2 ـ التعريفات: دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ـ العراق، 1406هـ/1986م، ص13.

للتسخيـر، ثمّ استخلف الإنسان بما ذرأه فيه من حبّ للمعرفة، ومن مواهب عقليـة وإراديـة تمكنه من فهم السُنن واستكشـاف العلاقات الرابطة بينها؛ ليبدع الممكنات من خلال الضرورات، وليتجاوز الطبيعة الجاهزة بابتكار ما يريده أن يكون انطلاقاً ممّا هو كائن.

فليس الإبداع رفضاً لكلّ ما هو منجز سابق؛ بل هو إنتاج توليدي تراكميّ يزيده عمق المعرفة بالموجود سلطة تسخيرية وقدرة على التجديد والإثراء. فالـذي يبـدع شعراً ـ مثلاً ـ أو يبدع أسلوباً أدبياً متميّزاً ليس هو الذي أبدع اللغـة التـي يبدع فيها وبها، بـل هو يمارس إبداعاً جديـداً على إبداع سابق يتجاوز به الأنساق السائدة دون أن يتمرّد على بنية اللغة وقواعدها الأصلية. إنّـه ـ بحكـم تمكّنـه المعرفي وحسّـه الإبداعي ـ يفجّر طاقـات لم يفجّرها قبلـه أحد، ويحـرّك ثوابت لم يسبـق أن حرّكها أحـد، ويستكشف مساحات بكـراً ظلّت قبله عجافاً؛ لينبت فيها حدائق غلباً، وجنات ألفافاً، بتصميمات جديـدة ورؤى مختلفـة. وهكذا الأمر في كل مجال من مجـالات الإبداع؛ إذ لا إبداع من فراغ، ولا إبداع من غير معرفة.

وتأكيداً لما ذكرناه وجدنا من الباحثين من يرى أنّ الإبداع هو «القدرة على رؤية علاقات جديدة بين حقائق الحياة الموروثة وتصوّرها... إنّه تنظيم كلّـي أوّلي لخبـرة سابقة من المدركات، ومـن آثار الذاكرة وصـور الأشياء والحركات»[1]. وقد أكّد محمد وقيدي ـ وهو يتكلّم على الإبداع الفلسفي ـ أنّه «لا وجـود للجـدّة المطلقة في تاريخ الفلسفة دون أن يعني ذلك أنّه لا وجود للإبداع في هذا التاريخ»[2].

1 ـ المختـار ولـد سعد: الإبداع في الثقافة العربية بين العوائق الذاتية وتحدّيات العولمة، المجلة العربية للثقافة العدد 43، سبتمبر 2002، ص70.

2 ـ الإبداع في الفلسفة العربية المعاصرة: الوحدة، السنة الخامسة، العدد 6، سبتمبر 1989، ص50.

ومع أنّه يصعب حصر الإبداع في تعريف واحد متفق عليه فلا مانع من الاستئناس بتعريف أحد المتخصّصين في دراسته. يقول ألكسندر روشكا: «الإبداع حصراً هو النشاط أو العملية التي تقود إلى إنتاج يتّصف بالجدّة والأصالة والقيمة من أجل المجتمع»[1]، وهذا يعني أنّ الجدّة ليست معياراً وحيداً للإبداع، فهي شرط لازم؛ لكنّها ليست مطلقة ولا كافية، بل لا بدّ من الأصالة التي قد تعني الخصوصية والطرافة أو التفرّد بحيث ينسب الإنتاج الإبداعي إلى صاحبه فرداً كان أم مجتمعاً أم حضارة دون تبعية وتقليد. ولا بدّ كذلك أن يكون هذا الجديد الأصيل ذا قيمة مضافة؛ أي: مفيداً وناجعاً في ميدانه، وقابلاً للاستثمار والتوظيف.

«الإبداع حصراً هو النشاط أو العملية التي تقود إلى إنتاج يتّصف بالجدّة والأصالة والقيمة من أجل المجتمع»

ثمّ إنّ الإبداع الذي نتكلم عليه لا نريده أن يكون مجرّد فلتات عابرة أو انبثاقات استثنائية يقوم بها بعض الأفراد أو بعض فرق البحث، فالذي نقصده هو أن يكون الإبداع نهجاً اجتماعياً شاملاً وخياراً حضارياً في سياق مناخ عام يشجّع المبدعين على تفجير طاقاتهم في جوّ من الحرّية المسؤولة.

إنّ نهج الإبداع منهج في التفكير والإنجاز، وعقلية اقتحامية تُحْسن طرح الأسئلة الحاسمة. وهو كذلك خيار تربوي وعلمي يقصد به تكوين الشخصية الإبداعية على مستوى الفرد، وتأسيس وضع إبداعي على مستوى المجتمع.

أمّا نهج الاتباع فهو نهج آسر للفكر معطّل لنموّ المعرفة، ومجمّد لحركة التاريخ. وهو منهج في التلقّي قوامه التقليد والأخذ بلا دليل؛ لأنّه اعتراف

1 ـ الإبداع العام والخاص: سلسلة عالم المعرفة، العدد 144، الكويت، 1410 هـ/1989م، ص19.

صريـح بالعجز واستقالة معرفية تمجدّ النماذج المتّبعة وتنبهر بالآخر سواء أكان هذا الآخر سلفاً قد مضى أم خلفاً معاصراً.

وليس مـن الضروري الاسترسال في سرد النعـوت السلبية لهذا النهج، فالمهـمّ أنّـه مناقـض لنهج الإبـداع، وقد نجد بعـض الواقفيـن ـ ولا أقول السائريـن ـ علـى هذا الـدرب يرفعون شعـار التجديد؛ بـل يحتكرونه؛ لكنّ تجديدهـم لا إبداع فيه؛ لأنّه خـالٍ من الأصالة والقيمة؛ إذ هو محض اتباع للآخر، ودعاية إيديولوجية غريبة عن المعرفة الموضوعية. وهذا يقتضي منّا النظر في علاقة الإيديولوجيا بالإبداع والمعرفة.

الإيديولوجيا والمعرفة:

تكلّم الكثيرون على مدى حاجة الخطاب العربيّ إلى الإيديولوجيا؛ لأنّها أداة التغييـر الاجتماعـي، فهي ضرورة تفرض ذاتهـا؛ إذ ليس المهمّ ـ كما يـرى ماركس ـ أن نعرف قوانين العالـم معرفة موضوعيّة نكتسب بها قدرة على تفسيره؛ بل المهمّ استخدام هذه المعرفة من أجل تغييره. ويرى هؤلاء أنّ مفهـوم الإيديولوجيا استحوذ على جزء كبير من المناقشات الكبرى في هـذا القرن؛ لأنّهـا تعد أداة مهمة للدولـة والأمّة في الحفـاظ الذاتي على الجماعـة، ومن دونها نكون تقريباً دون ضميـر ودون قانون أو نظام. ودون مرسـاة أو مينـاء، أيضـاً مـن دونها لا يمكـن أن تكون لدينا رؤيـة للعوالم الأخرى التي نريد استشرافها، فهي التي تصوغ دوافعنا واتجاهاتنا ونظمنا السياسية، وتشكّل قيمنا[1].

ولكـن رغم هـذه الضرورة المدّعـاة فقد لاحظ الكثيـرون ـ مثل محمد

1 ـ محمد أحمد إسماعيل علي: الإيديولوجيا العربية والتنمية المجتمعية، الوحدة، السنة 7، العدد 75، ديسمبر 1990، ص87.

إسماعيل عليّ الذي لخّصنا بعض كلامه في الفقرة السابقة ـ أنّ الإيديولوجيات العربية مثّلت «إيديولوجيات اصطناعية، لا تنبع من جوهر الواقع وهوية الشعب العربي، فهي إمّا إيديولوجيات مستوردة، وبالتالي غريبة عن حقائق الحياة العربية، وإمّا أنّها تلهمها الحكومات دون أن تنبع من روح الجماهير العربية وتعبّر عن ثقافتها ومشاكلها الفعليّة»[1].

غير أنّ هذا الكلام النقديّ لا يعترض على الإيديولوجيا في ذاتها؛ بل يقوم على التسليم بضرورتها مع التمييز بين إيديولوجيا ناجحة وأخرى غير ناجحة، رغم أنّ النجاح ليس مقياساً كافياً للدلالة على الصدق والموضوعية، فقد ينجح الاتباعي في ترسيخ نهجه في حين يفشل المبدع في الإقناع بما أبدعه، وقد ينجح تيار إيديولوجي في الانتشار رغم زيف أفكاره التي تسوّق تحت لافتة الإبداع والتطوّر.

فالإشكال لا يكمن في التطبيقات الإيديولوجية فحسب؛ بل هو موجود في بنية الإيديولوجيا ذاتها بوصفها نهجاً اتباعياً مستوراً ولو كان يلبس لبوس الجدّة والتغيير؛ وذلك لأنّه مناقض للمعرفة الموضوعية وللعلم. يقول عبدالله العروي: «يتعارض الفكر الإيديولوجي مع الفكر الموضوعي الذي يخضع للمحيط الخارجي فيتشبّع بقوانينه. إنّ عصرنا ـ الذي يعبد العلوم الطبيعية ـ يرى الفكر الإيديولوجيّ بامتعاض كبير»[2]، وليست الإيديولوجيا في نظره «الفكرة المجرّدة أو العقيدة؛ وإنّما هي الفكر غير المطابق للواقع، رغم أنّ الفرد المفكّر يظنّ عكس ذلك»[3] والمشهور عن الإيديولوجيا الماركسية أنّها تنقد الإيديولوجيا، وترى أنّها وعي زائف؛ لكنّها تتغافل عن كونها هي

1 ـ م. ن: ص96.

2 ـ مفهوم الإيديولوجيا: المركز الثقافي العربي، بيروت ـ لبنان، الدار البيضاء ـ المغرب، ط.4: 1988، ص10.

3 ـ الإيديولوجيا العربية المعاصرة: دار الحقيقة، بيروت ـ لبنان، ط.4: 1981، ص12.

ذاتهـا إيديولوجيا وثوقيّة تدّعي العلميـة وتتدخّل في توجيه المعرفة. وهناك مـن يرى أنّ الإيديولوجيـا ليست مجرّد معرفة خاطئة؛ بل هي ليست معرفة أصلاً[1]، فهي ـ بناءً على ذلك ـ «ليست معرفة بظروف العيش الواقعية. إنّها تكرّر المباشر (المظاهر الخدّاعة)، وتدرك الوهم الموضوعي فتدخله داخل نسق تعتقد أنّه الحقيقة، فإذا كان العلم معرفة بالواقع، ووسيلة لتحويله فإنّ الإيديولوجيا تعمل ضدّ نشوء المعرفة»[2].

تدلّ هذه الآراء التي نقلناها ـ وغيرها كثير جدّاً ـ على أنّ الإيديولوجيا نهـج فكـريّ سيئ السمعة فـي الأوساط العلميـة؛ لأنّه لا يرجـى منها إبداع أصيل؛ بل هي محض اتباع وثوقيّ يحتكر امتلاك الحقيقة، ويناضل أصحابه بشتّـى الوسائل مـن أجل فرض أفكارهم على الواقع وتحويل جماهير الناس إلى تابعين لهم تخدّرهم الأوهام الإيديولوجية تحت غطاء الثورية والتجديد.

الدّين والإيديولوجيا:

مـن الإسقاطات الإيديولوجية الشائعة فـي الخطاب العربي وضع الدين في خانة واحدة مع الإيديولوجيا بدعوى أنّهما نهجان وثوقيان مبنيان على اعتقادات قبليـة، ويرفضان الانتقاد، وينبذان الإبداع المعرفي، ورغم وجوه الاختلاف التي بينهمـا فهما يشتركان في عدّة خصائص منهـا كونهما فكرين خلاصيين، غير أنّ الديـن خلاصـه أخروي غيبي، والإيديولوجيا خلاصهـا دنيويّ، فهما تعبيران متباينـان عـن قضية واحدة هي الرغبة في الخـلاص[3]، وإذا كان الدين أساسه التعالـي والـكلام المقـدّس القائم وراء حـدود العقـل فـإنّ الإيديولوجيا تعقلن

1 ـ عبـد السلام بن عبد العالـي: الميتافيزيقا العلم والإيديولوجيا، دار الطليعة، بيروت ـ لبنان، ط.2: 1993، ص93.

2 ـ م. ن: ص94.

3 ـ محمد مزوز: الوظيفة الرمزية للإيديولوجيا، الوحدة، السنة 7، العدد 75، ديسمبر 1990، ص7.

المقدّس وتقدّس العقل[1]. وبناءً على هذا الخلط صارت الإيديولوجيات تُنقد على أساس أنّها أديان وإن كانت أدياناً محايثة، كما صارت الأديان تنقد على أساس أنّها إيديولوجيات وإن كانت غيبيّة أو ميتافيزيقية، وظهرت في التحاليل التي تسم نفسها بأنها علمية وموضوعية مقارنات ساذجة بين أصول بعض الإيديولوجيات وأصول العقائد الغيبية، فالبورجوازية مثلاً هي قوى الشيطان، والبروليتاريا هي الملاك المخلّص والاستغلال هو الخطيئة الأولى، والثورة هي القيامة، والمجتمع اللاطبقي هو الجنّة، المجتمع الرأسمالي هو الجحيم، والحتمية هي القدر[2] إلى غير ذلك من المقارنات اللاعلمية بين الماركسية والدين.

من الإسقاطات الإيديولوجية الشائعة في الخطاب العربي وضع الدين في خانةٍ واحدةٍ مع الإيديولوجيا

والغريب أنّ كثيراً من الإيديولوجيين يتناسون عمداً أو سهواً ـ إذا أحسنّا بهم الظنّ ـ أنهم إيديولوجيون مرّتين على الأقل: إحداهما حين ينقدون الإيديولوجيا عموماً بأنّها وعي زائف، ويستثنون إيديولوجياتهم التي يرونها إبداعاً للواقع الموضوعي. والمرّة الأخرى حين يضعون جميع الأديان في سلّة واحدة، ويرون أنّها جميعاً تعبيرات إيديولوجية، وابتكارات ثقافية تروّج عالماً خيالياً مزوّراً مرصوداً لإخفاء تزوير العالم الواقعي[3].

وإذا جرّدنا هذا الكلام وأمثاله من الأوصاف القدحية كالزور والزّيف نحوهما فإنّ هؤلاء يشتركون في الجزم القاطع بأنّ الدين ـ مطلق الدين ـ

1 ـ محمد سبيلا: الإيديولوجيا نحو نظرة تكاملية، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء ط.1: 1992، ص194ـ195.

2 ـ م. ن: ص183.

3 ـ أحمد حيدر: من الإيديولوجيا إلى الفلسفة والدين، دار الحوار، اللاذقية ـ سوريا، ط.1: 2002، ص106.

هــو إنتاج بشري وإفراز من إفرازات الحياة الاجتماعية، أو هو تعبير ثقافي كالأساطير والسحر والفنون وغيرها[1].

ومثـل هذا الكلام ترد عليـه كثير من الأسئلة مـن أهمّها في خصوص موضوعنـا هو سؤال الإبداع، بمعنـى أين الإبداع في وصف الدين بأنّه إنتاج بشريّ أوّلاً، ثمّ في وصفه بأنّه إيديولوجيا ثانياً؟

إنّ جميـع الذين أنكـروا الدين ورفضوا دعوات الرسل على مرّ التاريخ كانـوا يرون أنّـه إنتاج بشريّ، فقديماً قال قوم نوح عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۞ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنـون: 33ـ 34] فقد كانوا أصحاب ديانة وثنية من وضعهم ظنّوا أنّ نوحاً عليه السلام جاءهم بدين بشري من إنتاجه، وبما أنّه لا يتميّز عنهم بشيء ـ بحكم أنّه بشر مثلهم ـ فليس هناك ما يوجب ترك ما وضعوه من ديـن وثنـيّ واتباع ما وضعه لهم من دين توحيدي. وكذلك كان يقول عامة المنكريـن لدعـوات الرسـل. والذين يقولون اليـوم إنّ الديـن إنتاج بشريّ يكـرّرون مـا قال الأقدمـون نفسه ولكـن بصياغات جديدة مغلّفـة بأسماء علميـة فخمـة يستعملهـا غيـر أصحابها استعمـالات إيديولوجيـة تخرجها مـن علميتهـا، مثل الاستقواء الفكري بتوظيف علـم الأنتروبولوجيا، مع أنه لا يعسر على الناظر المستقلّ أن يفرّق بين أنتروبولوجيّ محايد لا يجازف بإلقاء الأحكام القيميّة العامة ويهتمّ بعلمه اهتماماً معرفياً، وبين من ليس فـي كلامه غير التزيّن بالاسم للإيهام بأنّه باحث موضوعيّ، في حين أنّه يوظّـف هـذا العلم توظيفـاً إيديولوجيـاً دون أن يكون قد مارسـه؛ بل إنّك تجـده يتكلّم كذلك فـي السوسيولوجيا والإتنولوجيـا والسيكولوجيا وغيرها

1 ـ بنسالـم حميش: التشكّلات الإيديولوجية في الإسـلام، دار المنتخب العربي، بيروت ـ لبنان، ط.1: 1413هـ/1993م، ص214.

من العلوم كلام المقلد المتبع ليقول في الدين ما لم يقله جميع العارفين بهذه العلوم، وإن قاله بعضهم انطلاقاً من سياقاتهم الفكرية والاجتماعية الخاصة.

أمّا وصف الدين بأنّه إيديولوجيا فهو ليس من إبداعات الخطاب العربي؛ بل هو من ابتداعاته الاتباعية؛ لأنّه محض اتباع لمصطلح نشأ خارج سياق الفكر العربي والإسلامي في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.

ثمّ بأي معنى يجوز أن نطلق مصطلحاً جديداً على مظاهر الانتماء الفكري أو الدينيّ التي عرفتها القرون السابقة؟ «أو بعبارة أخرى هل يرتبط نشوء اللفظ بنشوء الظاهرة أم إنّه منفصل عنها؟»[1].

وإذا تجاوزنا هذا السؤال المفهومي المتعلق بالتسمية الاصطلاحية للظواهر القديمة فأين التفريق بين الدين السماويّ المنزّل والدين الذي هو من إنتاج البشر؟ ثمّ أين التفريق بين الدين في ذاته وأدلجة الدين؟

والواقع ـ كما يقول أحمد حيدر ـ أنّ الاستلاب الإيديولوجيّ قد انصبّ على الدين أكثر ممّا انصبّ على أيّ نشاط روحيّ آخر مثل الميتافيزيقا والفنّ... والسبب في ذلك أنّ الدين هو النزوع الأشدّ تجذّرا في النفس البشرية، والأشدّ فعاليةً وتحريكاً للمجتمع»[2]، وقد استولى هذا الاستلاب على الدين منذ بدايات الحضارة الإنسانية بحيث صار يصعب العثور على الدين في حالته النقية الأصلية، ولا بدّ مع ذلك من افتراض حالة دينية نقية متقدّمة على أدلجة الدين، ولو لم يكن الدين فطرة فطر عليها الإنسان وحاجة من حاجاته الأساسية «لما

1 ـ محمد سبيلا: الإيديولوجيا والحداثة، الوحدة، السنة 7، العدد 75، ديسمبر 1990، ص27.

2 ـ من الإيديولوجيا إلى الفلسفة والدين: ص108.

انصبّ عليه الاستلاب الإيديولوجيّ، وما كان لهذا الوهم، وهم الخلاص الدينيّ ـ كما يراه ماركس ـ أن يضلّل البشر ويستلب وعيهم طيلة التاريخ»[1].

وإذا جاز وصف الديانات الوضعية والتحريفات التي أدخلت على رسالات الأنبياء بأنّها إيديولوجيات فكيف يجوز لمن ينتسب إلى الحضارة الإسلامية أن يصف الإسلام بأنّه إيديولوجيا؟

ولقد قرأنا لكثير من أبناء جلدتنا ممّن يرفعون شعار الإبداع فوجدناهم يسقطـون علـى الإسلام ما يرونه مـن خصائص الإيديولوجيـا. فعلى سبيل المثال هناك من يرى أنّ الإسلام إيديولوجيا تأسيسية أو عضوية؛ لأنّه رؤية شموليـة تهب الأتباع نظرة مختزلة للعالـم ولوجودهم فيه، وله قدرة تعبوية ودفاعيـة قوامهـا العنف الكلامـيّ إن كان كافياً، أو العنـف الفعلي في آخر المطـاف. وهو إنّما نشأ فـي البيئة العربية، وفي سياق سيرورة تاريخية هي التعبيـر عن الوجـود الجمعيّ، أو رغبة القبائل العربيـة في تشكيل مجموعة قادرة على أن تحفظ هويتها بين قوتين عظميين هما الروم والفرس، ويعود الفضـل إلـى نبيّ الإسلام في الكشف عن تلك الرغبـة وتجذيرها بإسنادها إلى أسس ما ورائية، وهكذا فالمنطق الديني في الإسلام يقوده توتّر وجودي يعبّـر عـن خطاب إثباتـي «المجهود فيـه منصبّ ليس علـى المعرفة الحقّة لنظام الحقيقة؛ بل على بناء نظام حقيقة»[2].

وخلاصـة هذا الـكلام وأمثالـه أنّ الإسلام ليـس وحياً ربّانيّـاً مطابقاً للحقيقة؛ بل هو إنتاج بشريّ أفرزته ظروف تاريخية مخصوصة، وهو بالتالي إيديولوجيـا اتباعيـة مسقطة على المعرفة؛ لأنّه «يضـع الحقيقة لا كموضوع بحث واستبار، بل كسابقة على كل شكل معرفة»[3].

1 ـ م. ن: ص109.

2 ـ بنسالم حميش: التشكلات الإيديولوجية في الإسلام، ص221 ـ 222.

3 ـ م. ن: ص222.

ومـع أنّ المجال يضيق عن التوسّع فـي تفصيل مناقشة هذه الدعاوى الإطلاقية فمن اليسير دفعها من خلال الإطار الإشكالي الذي ضبطناه بين ثنائيـة الإبداع والاتبـاع؛ وذلك لأنّ هذا الخطاب اتباعـيّ لا يضع الإسلام فـي موضع البحـث المعرفي قصد الكشف عن حقيقتـه، وإنّما يدخل عليه مـزوّداً بأفـكار جاهزة وتصوّرات قبلية يسقطها عليـه قسراً تأسياً بنماذج إيديولوجيـة مستوردة صار لهـا سلطان على عقول مستقيلة يظنّ أصحابها أنّهم مستقلون مبدعون.

ولسـت أدري أيـن يكمـن الإبداع في سلـخ أمّة من هويتهـا الحضارية، فالإبداع ليس هدماً بل بناء وإضافة وابتكار في ضوء ثوابت الهوية.

الإسلام والإبداع:

والذي نقصده بالاتباع المبدع هو اتباع صراط اللّه تعالى ورسوله الكريم، اما الاتباع الآسر فهو تقليد البشر بغير حجة

إنّ الـذي ألصـق شبهة الاتبـاع غير المبدع بالإسـلام هـو النهـج الاتباعـي الذي سـاد في عصور التخلف والتقليد، وانقسام المسلمين إلى طوائـف متدافعة وفـرق يدّعي كلّ منهـا احتكار الحقيقـة الإسلامية، وهو ما عبّـر عنه الأشعري بقولـه: «اختلف الناس بعـد نبيهم ﷺ في أشياء كثيـرة ضلّـل فيها بعضهـم بعضاً، وبـرّئ بعضهم من بعض، فصـاروا فرقاً متباينيـن وأحزابـاً متشتّتين»[1] فليس الاختلاف فـي ذاته هو الذي أصّل نهج الاتبـاع؛ بل سوء إدارته والتكتّل المتوتر داخـل ولاءات مذهبية منغلقة تقدّم الولاء للمذهب المتبع على الولاء للإسلام الذي يشمل الجميع.

1 ـ مقـالات الإسلاميين واختلاف المصلّين: النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية، تصحيح هلموت ريتر، فيستبادن ـ ألمانيا: 1400هـ/1980م، ص1ـ 2.

إنّ الاختلاف القائم على الاعتراف بحقّ الاختلاف، وعلى أصول منهجية فـي النظر عامل ثـراء، ومسلك اجتهادي كفيل بتأسيـس نهج إبداعي يقدّم المعرفة العلمية على التحزّب، والاستدلال الكاشف على التبعية العمياء.

ولقـد عرف التاريخ الإسلامي مـدّاً إبداعياً في مختلف المجالات قامت عليـه حضارته التي تقدّمت وفاقت الحضـارات السائدة التي عاصرته؛ لكنّ هـذا المدّ المعرفـيّ في العلوم الشرعيـة والإنسانية والكونيـة تراجع بسبب غلبـة نهـج الاتباع والتقليد، ومـا زالت الآثار السلبية لهـذا النهج قائمة إلى اليـوم فيما نراه من طائفية بغيضـة وتعصّبات جامدة، ودعوات إلى التأسّي المطلـق بمـن مضى، وتخويف مـن الاجتهاد، وتبديع لكلّ مـن ابتكر رأياً أو أحـدث قـولاً يناسب ظـروف العصر ولو كان قائماً علـى منهج من المعرفة لصاحبه حظّ ظاهر من البرهنة والاستدلال.

ومكمـن الخطـر في هذا النهج الاتباعي الذي يبـدّع التجديد أنّه يسوّق نفسـه باسم الإسـلام، ويشهر سـلاح النصوص بفهم ظاهـري يجعل اتباع السابقيـن إلزامـاً مقدّساً يخـرج المجتهدين المبدعين مـن دائرة الالتزام الإسلامي.

وهـذا النهـج هو الـذي جعل الخطـاب الإيديولوجي العربـي يتكلّم على ظاهـرة أدلجة الإسلام في العصر الحديـث، وهناك من قسّم هذه الأدلجة إلـى صنفين: أدلجة تقليدية تشدّد على شمولية الإسلام وتستحضر الله في جميـع قضايا البشـر، وأدلجة ثورية تبـرز قيم التحرّر، وتركـز على الأبعاد الاجتماعيـة وقضايا العدالة خلافاً للأدلجة التقليديّة التي تؤكّد قيم التقوى والولاء للأوضاع السائدة[1].

وظاهـر أنّ هـذا التحليـل ليـس نظراً علميـاً محايداً؛ لأنّـه يقوم على

1 ـ محمد سبيلا: الإيديولوجيا نظرة تكاملية، ص195ـ 196.

خلفيــة إيديولوجية خائفة مــن الإسلام، وتجتهد في تأويلــه تأويلاً يسحبه من الحياة العامة، ويلغي بعده الشمولي الأصيل اتباعاً للنهج العلماني الذي يقــوم بقسمة ضيزى تجعل الديــن للّه وتحصره في الضمائــر والمساجد، وتجعل الوطن بل الدنيا للجميع يفكرون في قضاياها بعيداً عن اللّه تعالى ودينه الذي ارتضاه للناس.

تأمر آيات القرآن الإنسان بالنظر في سُنن الكون والحياة.. وهو نظرٌ يؤدّي وظيفةً علميةً تمكّن الإنسان من استكشاف قوانين الطبيعة

وبقطــع النظر عن النهــج الاتباعي التقليدي الــذي يخــاف من الإبــداع وعن النهــج الاتباعي الإيديولوجــي الــذي يخــاف مــن الإســلام؛ فإنّ النظــر المعرفــي في نصوص الوحــي وفي تراث المسلميــن الإبداعي يؤدي بنــا إلى استنتاج نراه واضحــاً هــو أنّ الإســلام نهــج إبداعــي يتأسّس علــى نمط مخصوص من الاتباع المبدع يرفــض الاتباع الآسر المقيّد لخط الاجتهاد المعرفي.

والــذي نقصــده بالاتبــاع المبــدع هو اتباع صــراط اللّه تعالــى ورسوله الكريــم، أمّا الاتباع الآسر فهو تقليد البشر بغيــر حجّة، فالعلماء المسلمون حيــن عرّفــوا التقليد كانوا يفهمــون أنّه مأخوذ لغة من القــلادة التي تجعل فــي العنــق بحيث تلزم صاحبهــا حتى تكاد تخنقه، وقد أخرجــوا اتباع سُنَّة الرسول ﷺ من المفهوم الاصطلاحي للتقليد فهو عند بعضهم «العمل بقول الغيــر مــن غير حجّة» أو هو «قبــول رأي من لا تقوم بــه الحجّة بلا حجّة»، وبنــاءً على هذا التعريف لا يعدّ العمل بقــول الرسول تقليداً؛ لأنّ قوله حجّة ودليل خلافاً لقول غيره[1].

1 ـ الشوكاني: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ـ لبنان، ط.8: 1428هـ/2007م، ص442 ـ 443.

ومـن تتبع مادة الاتباع في القرآن الكريـم يجدها مستعملة في صنفين أحدهما: اتباع محمود يحث عليه القرآن، والآخر: مذموم ينهى عنه.

وأنواع الاتباع المنهي عنه كثيرة منها اتباع الأهواء، واتباع الظنّ بغير علم ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 148] ومنها اتباع الجبابرة مثل فرعون وغيره ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هـود: 59] ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: 97] ومنها اتباع الآباء تقليداً لهم بغير حجّة معقولة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقـرة: 170] فـكل هذه الأنـواع من الاتباع هي سير فـي نهج معطل للعقـل والمعرفة؛ لأنّها محض تقليد بغير برهان.

أمّـا الاتبـاع المحمـود فهو اتبـاع الله تعالى واتباع الوحـي المنزّل على الرسـول ﷺ، والآيـات الدالـة على ذلـك كثيرة منهـا ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طـه: 123] ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعـام: 153] ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: 3] إلخ...

فهـذا الاتباع ليس تقليداً وليس نهجاً معطـلاً لحركة الإبداع؛ لأنّه اتباع لنهـج المبدع العظيم الـذي أبدع الخلق كلّه، فما من شيء في الكون البديع الذي يشاهده الإنسان ويستكشف بدائعه الجليلة والدقيقة إلا وهو منبثق من كلمة إبداعـه التي تحدث الكائنات من العدم ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117].

ثـمّ إنّ هـذا الاتباع ليس اتباعـاً بلا وعي وبحث معرفـي؛ لأنّ آيات القـرآن تأمر الإنسان بالنظر في سنن الكـون والحياة، وهذا النظر إلى

جانب وظيفته الإيمانية التي تنقل الناظر من الكون إلى الإيمان بالمكوّن يـؤدي وظيفة علمية تمكّن الإنسان مـن استكشاف قوانين الطبيعة قصد توظيفها توظيفاً إبداعياً في ابتكار كلّ ما يرتقي بوضعه في الكون، فإيمان المسلم بربّ العالمين واتباع هداه هو دافع كبير من دوافع الإبداع وليس مانعاً في طريقه.

أمّا اتباع الوحي والنصّ فهو اتباع لكلمات اللّه التي لا تنفد معانيها، وتتسع دلالاتها لتكون مصدراً يمدّ الإنسان بما يساعده على صناعة تاريخ تطوري لا نكوص فيه ولا جمود. لكنّ ذلك مشروط بأنّ تكون قراءة القرآن قراءة إبداعية قائمة على التدبّر كما قال تعالى ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [صٓ: 29] فهـو لـم ينزل ليستنفـد أغراضه في عصر دون عصر؛ بل ليفهمه أبناء كلّ عصر في إطار ظروفهم التاريخيّة وفي حدود سقـف معارفهـم العلميـة، ولا ينبغي للذيـن يلونهم أن يقفـوا عند حدود القـراءات الماضيـة؛ بل هم مطالبـون بإعادة القراءة قصـد استكشاف دلالات جديـدة ورؤى إبداعيـة مناسبـة لواقعهـم الجديـد، ومرتفعة إلى مستـوى السقف المعرفـي المتسع بتراكم الكشوفـات العلمية والابتكارات المتلاحقة.